ثقافة المقاومة ومنطق التاريخ

2005/6/10م

الدكتور محمد شقير

عادة ما تصنع الشعوب من تاريخها وتجاربها ثقافة حيّة مستقاة من العبر والنتائج التي استحصلت عليها من واقع تلك التجارب والمحن التي واجهتها، وعادة ما تعتز تلك الشعوب وتفتخر بما حققته من انجازات أو انتصارات لتعمل ليس فقط على الاحتفال بها بطريقة فولوكلورية وإنما أيضاً على البناء عليها وتحويل كل الخلاصات التي تستقى من قراءتها قراءة واعية إلى ثقافة هادفة تعمل على نقل تجارب الماضين وعبرها إلى الأجيال اللاحقة.

وفي هذا السياق يأتي انتصار المقاومة اللبنانية على إسرائيل في أيار من العام 2000م حيث استطاعت تلك المقاومة بعد جهاد استمر لعقود من الزمن وبعد كثير من التضحيات والاختبارات القاسية أن تفرض على إسرائيل الخروج ذليلة من أراض عربية احتلت؛ ولم يكن بدعاً من الفعل أن تستطيع المقاومة أن تفرض على المحتل الخروج من أرضها، ولم يكن بدعاً من النهج أن يعتمد أسلوب المقاومة والمواجهة العسكرية لإجبار المحتل على الخروج وإلحاق الهزيمة به، بل هذا ما يؤكده منطق التاريخ الذي يقول أن منطق الاحتلال لا يواجه إلا بمنطق المقاومة وأن فعل الاحتلال لا يواجه إلا بفعل المقاومة.

إن منطق التاريخ يقول إن القوة لا يردعها إلى القوة وإن فعل التحرير لا يتحقق لا بالتمني وبالترجي ولا بالتسول أو الاستجداء وإلى هذا أشار الإمام علي (ع) عندما قال: «ردوا الحجر من حيث جاء فإن الشر لا يردعه إلا الشر»، هذا الردع الذي هو شر على الأعداء لكنه خير لأبناء الوطن كل الوطن.

لقد انتصرت المقاومة على الاحتلال وطردت المحتل من معظم الأراضي اللبنانية لكن السؤال الذي يطرح: كم عمل اللبنانيين جميع اللبنانيون على استثمار هذا النصر ليس فقط على مستوى تحقيق بعض المكاسب السياسية أو الاقتصادية وإنما أيضاً على مستوى قراءة فعل المقاومة وجدث الانتصار من زوايا أخرى ترتبط بالعبر والاستنتاجات التي يمكن للبنانيين أن يستفيدوها من

هذه التجربة، وعلى مستوى تثمير هذه التجربة في تدعيم صيغة العيش المشترك وأيضاً على مستوى تشكيل ثقافة مقاومة واعية تتسع لجميع أبناء الوطن ويكون لباسها على مقاس كل الوطن، لتفضي هذه التجربة التي خيضت بالدموع والدماء إلى ثقافة تمنح الوطن وأبناءه مناعة تحول دون أي احتلال جديد ودون أي اختراق خارجي ودون أي تدخل من أية دولة أجنبية في شؤون اللبنانيين ومستقبلهم وقضاياهم؛ فهل استطاع اللبنانيون أن يصنعوا هكذا ثقافة وهل لديهم هكذا إرادة لصناعة وتفعيل هذه الثقافة التي تعمل على تحديد معايير العداء والصداقة ومن هو العدو ومن هو الصديق وما هي بالتالي أساليب ووسائل الحماية والردع وطرق تحصين بلدنا من الاستهدافات الخارجية.

لذا بداية لا بد من تحديد المعايير التي تميز العدو من الصديق لأنه إذا تم تحديد تلك المعايير يمكن عندها الاقتراب من إجابات مشتركة ومتفق عليها، فهل العدو هو من اتفق اللبنانيون على كونه عدواً، والصديق من اتفق اللبنانيون على كونه صديقاً؟ قد لا يتفق اللبنانيون على ذلك، إذ قد يوجد من يعتبره بعض اللبنانيين عدواً في حين يعتبره اخرون صديقاً، وبالتالي قد لا يتفق على عدو واحد للوطن أو على صديق واحد للوطن، أو قد يتفقون على عدو واحد لكن منسوب العداوة لدى فئة من اللبنانيين قد يكون أقل من منسوب العداوة لدى فئة أخرى حتى أن هذا المنسوب قد يكون متدنياً جداً لدى البعض إذا لم يصل إلى حدود الضحالة والجفاف في أحيانٍ عديدة.

لعل هناك معيار أكثر وضوحاً ينبع من وقائع التاريخ وهو أن من أضر بلبنان وأساء إلى الوطن قتلاً وتدميراً وتشريداً واعتداءً وانتهاكات... هو من يصح وصفه بكونه عدواً للبنان، في حين أن من ساعد لبنان ووقف إلى جانبه في أيام المحن والشدائد والأزمات هو صديق للبنان؛ وحتى إذا قيل إن هذا المعيار قد يُختلف في تطبيقه في موارد متعددة؛ لكن هل يشك أحد ما من اللبنانيين في أن إسرائيل احتلت لبنان ودمرته ودمرت اقتصاده وارتكبت المجازر وقتلت الكثير من اللبنانيين فضلاً عن أعداد كبيرة جداً من الأسرى والجرحى والمعاقين، هل يشك أحد من اللبنانيين أن إسرائيل قد ارتكبت جرائم إنسانية فظيعة في لبنان وتسببت بتهجير اللبنانيين لمرات ومرات، وبالتالي سوف يكون من السخف المجادلة في أن إسرائيل عدو للبنان واللبنانيين أم لا! ومن هنا

جاء فعل المقاومة ليطرد هذا العدو وليقيم توازن رعب ولربما ردع يحول دون معاودة هذا العدو للاعتداء مجدداً على لبنان ومياهه وأرضه وأهله وشعبه.

إن ثقافة المقاومة تعني أن يعرف جميع اللبنانيين أن إسرائيل هي عدو لجميع اللبنانيين وليس لفئة منهم وأن إسرائيل عندما احتلت لبنان فقد أضرت بجميع اللبنانيين وليس بفئة خاصة منهم وأن إسرائيل عندما ارتكبت ما ارتكبته من جرائم ومجازر وقتل وتدمير وتشريد... كانت ترتكب بحق جميع اللبنانيين وليس فقط بحق فئة خاصة منهم. ولذلك عندما تحقق النصر على إسرائيل، فإن هذا النصر كان للبنان كل لبنان وللبنانيين جميع اللبنانيين.

وبالتالي فإن فعل الحماية الذي تقوم به المقاومة ليس فعلاً يختص بفئة دون أخرى أو منطقة دون أخرى، بل هو فعل حماية لجميع اللبنانيين ولكل لبنان. وإن فعل الردع الذي تنجزه المقاومة هو فعل يخدم مصلحة وأمن واستقرار جميع اللبنانيين وليس مصلحة فئة خاصة منهم وأمنها واستقرارها.

وهكذا كانت المقاومة في تاريخها وماضيها الذي لا يستطيع أحد أن يقول فيه إنها قاتلت لفئة دون أخرى أولمنطقة دون أخرى، ولا يستطيع أحد أن يقول أن التضحيات التي قدمتها المقاومة لم تخدم لبنان كل لبنان في أمنه واستقراره.

لقد كان ممكناً التشكيك في أهداف المقاومة ومشروعها وخياراتها عندما كانت المقاومة في بداياتها، فهناك من شكك في اعتماد الخيار المقاوم لدحر الاحتلال وهناك من شكك في نوايا المقاومة ومشروعها وغاياتها، لكن هل يمكن لأحد من اللبنانيين وبعد أكثر من عقدين من الزمان أن يشك في جدوائية فعل المقاومة وصوابية خيارها وقدرتها هلى تحقيق توازن رعب أو ردع يمنع إسرائيل من احتلال لبنان أو الاعتداء عليه مجدداً؟ لقد استطاعت المقاومة أن تهزم إسرائيل وتحرر الأرض وتعيد بعض الحقوق وتسترجع الأسرى وتمنح لبنان القدرة على التنعم بمياهه، فلا يمكن لأحد أن يقول بعدم جدوائية هذا الفعل أو عدم قدرته على الردع والحماية.

وعليه إذا كانت إسرائيل هي العدو المعروف بعدوانيته وتوسعيته وعدم احترامه للعهود والمواثيق والقوانين الدولية، وإذا كان الخيار الذي أثبت جدوائيته مع هكذا عدو هو الخيار المقاوم؛ فأية ثقافة يجب أن يحملها اللبنانيون، هل هي ثقافة التخلي عن مكامن

القوة أمام عدو شرس ولئيم، أم ثقافة المناعة والحماية والردع التي أثبتت المقاومة وبعد تجارب مريرة وقاسية قدرتها على توفيرها لجميع اللبنانيين ولكل لبنان.

إن منطق التاريخ يقول إن العدو لا يبلغ الهزيمة، ولذلك فإن إسرائيل لن تستمريء هزيمتها القاسية التي ألحقتها بها المقاومة اللبنانية في العام 2000م مع ما أدت إليه هذه الهزيمة من تداعيات كبيرة على الداخل الفلسطيني، وتحقق الفلسطينيين والعرب من جدوائية خيار المقاومة وقدرته على تحقيق النصر على إسرائيل، ولذلك لا يمكن أن يستشم من سعي الإسرائيليين إلى نزع سلاح المقاومة وتخلي لبنان عن قوته الردعية إلا نوايا عدوانية مبيتة، ولذا فإن وقوف إسرائيل وراء القرار 1559 يعني أن إسرائيل تريد أن تثأر لهزيمتها في لبنان العام 2000م، وبما أنها لا تستطيع حراكاً طالما أن سلاح المقاومة موجود بما يشكل من قوة ردع، لعدوانها المحتمل وثأرها المرتقب؛ لذا كان لا بد من العمل على تجريد المقاومة من سلاحها حتى تستطيع أن تثأر بسهولة لهزيمتها وبالطريقة التي تراها مناسبة وأن تعاود من جديد عدوانها؛ ومن هنا كان من الضروري العمل على صناعة ثقافة المقاومة وعلى تفعيل هذه الثقافة لتتحول إلى ثقافة لجميع اللبنانيين ولا تبقى هذه الثقافة لفئة دون أخرى، ليتفق اللبنانيون على عدو واحد ويتمسكوا بثقافة واحدة للمقاومة، لأن منطق التاريخ يقول أيضاً أنه رب نصر صار هزيمة ورب هزيمة صارت نصراً فالمحافظة على نصر التحرير بما يعنيه من استمرار الحماية للبنان وحقوقه تقتضي تحصين لبنان بثقافة المقاومة والممانعة والتي ترتكز على فكرة أساس مفادها أن الوسيلة الوحيدة التي أثبتت بعد تجارب استمرت لأكثر من نصف قرن قدرتها على حماية لبنان هي المقاومة وقوتها الردعية.